

جامعة طرابلس

الدراسات العليا

قسم التاريخ

النظام الاجتماعي في الدولة العثمانية

PC
فرج أحمد كندي

المقدمة

سوف تتناول هذه الدراسة موضوع مظاهر الحياة الاجتماعية في الدولة العثمانية تلك الدولة التي توسعت في أرجاء الارض، وضمت بين رعاياها العديد من الشعوب، والعرقيات المختلفة، والمنتوعة في الاديان، واللغات والعادات والتقاليد والتفاوت الطبقي والمعرفي والتنوع الثقافي الذى اثر وتأثر في تعدد وتميز وتنوع الحياة الاجتماعية في هذه الدولة التي توسعت على حساب قارت العالم القديم - اسيا ، وافريقيا ، و أوروبا - وهو ما جعل الحياة الاجتماعية من التنوع، والازدهار والرقى من عوامل ازدهار الدولة وتميز علاقاتها الاجتماعية والدينية، وأثر في امتزاج هذا التنوع الذي انعكس على مظاهر العمران والصناعة والزراعة ،وعلى تنوع وتشابك هذه المظاهر الذي كان عمل في ازدهارها ونموها في فترة القوة والازدهار وربما ساهمت بعض المظاهر في ضعفها ، و تفككها وربما هدمها والقضاء عليها في فترة الضعف مثل العامل الديني .

وسوف تركز هذه الدراسة على نوع العلاقات الاجتماعية المتمثلة في محاولة الاطلاع والاجابة على تساؤل يمثل مشكلة البحث وهو هل المجتمع العثماني مجتمع طبقي ؟ وماهي مظاهر الطبقية إن وجدت ؟ ودور الاعيان والوجهاء ؟ ودور المؤسسة العسكرية وتأثيرها في الجانب الاجتماعي في المجتمع العثماني . كما ستتناول الدراسة السكان والحرف والمدن وتأثرها في العلاقات الاجتماعية دورها في تشكيل الهوية التركية .

وهذه الدراسة ستتكون من مقدمة ، وست مباحث وخاتمة وقائمة للمراجع التي سوف نستعين بها كمراجع تساهمت في إثراء الدراسة وتعزيزها وتوثيق معلوماتها .

وسوف نتبع منهجية طرح المعلومات وعرضها للتحويل والنقد بغية الوصول إلى الحقيقة التاريخية المجرة البعيدة عن الاحكام المسبقة ، أو التأثر بتوجهه،

أو ميول ؛ فغرض البحث هو الحقيقة التاريخية كما وقعت في الحقيقة كما هي دون زيادة أو نقصان ، ودون تحريف أو تزيف .

تقديم

أن دراسة تاريخ الدولة العثمانية بصفة عامة من الصعوبة بمكان ؛ من حيث المدة الزمنية التي تخللت قيام وتوسع هذه الامبراطورية في قارات العالم القديم الثلاث ؛ وطيلة الفترة الزمنية التي امتدت من القرن الثالث عشر ميلادي إلي القرن العشرين أي زهاء السبعة قرون من الزمن وهي فترة طويلة جداً .

والصعوبة تزداد في دراسة النظام الاجتماعي في هذه الدولة المترامية الاطراف المتنوعة الاعراق والاجناس واللغات والاديان ؛ فهو بحر لحي حتمت ظروف البحث علينا ولوجه وخوض غمارة وإن كنا في بداية خطواته . وذلك لحساسية ودقة الموضوع .

وبما أن المجتمع العثماني بهذا الاتساع والتنوع والثراء الاجتماعي فإننا سوف نتابع المظاهر الاجتماعية فيه بحسب مباحث مقسمة على الظواهر أو المسميات الاجتماعية التي كان لها تأثير مباشر وكبير على المجتمع التركي في حياته اليومية وعلى المستوى الرسمي للدولة .

المبحث الاول

العلماء

يعتبر العامل الديني من أهم العوامل الي ساهمت في تشكيل المجتمع التركي القائم على الاسلام باعتباره دين الاكثرية السكانية في الامبراطورية؛ كما هو العمل الاساسي والمحرك الاول في انطلاقة تأسيس الامبراطورية العثمانية التي قامت على أيدي قادة القبائل من الاتراك الذين توحدوا تحت الراية العثمانية واخذوا في التوسع اولا باتجاه الامبراطورية البيزنطية ، ومنا إلى كافة ارجاء العالم رافعين راية الاسلام في حملات التوسع والفتح الى ان تم لهم فتح مصر وتسلم راية الخلافة الاسلامية من الخليفة العباسي في مصر ، وبهذا اصبح السلطان العثماني خليفة للمسلمين وحامي راية الاسلام واطلق على نفسه " خادم الحرمين الشريفين .

وكانت الصوفية والتصوف هي السمة الغالبة على الحالة الدينية في كافة ارجاء الدولة وكانت بدعم من الخلفاء في مقابل ان تقوم هذه الطرق بإضفاء الشرعية الدينية للخلفاء (كان الشيوخ والدرراويش يسمون أحياناً " الغزاة الدراويش " المتحمسون لترويج طرق أولياء خرسان ؛ يقومون بتربية التركمان الذين ليس لهم روابط وثيقة بالدين الإسلامي تربية إسلامية ، ويشجعونهم بالقيم التي تتمثل في تعظيم فتح الاقطار لاكتساب أرض جديدة لتوسيع رقعة دار الإسلام)¹ كما تبنت الدولة العثمانية سياسة جلب الاطفال الصغار من الدول المفتوحة وتربيتهم على العقيدة الاسلامية ، والقيام بالتدريب العسكري ووظائف أخرى كان لهم الاثر الكبير في الحياة الاجتماعية والسياسية التركية فأصبحوا قادة كبار في الانكشارية ووصل بعضهم إلى حكام ولايات بل وصلوا إلى منصب الصدر الاعظم – رئيس الوزراء .

¹ تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوتونا، ترجمة عدنان محمود سلمان، مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، ١٩٨٨م، المجلد الأول، ص ٨٨

وقد اهتمت الدولة العثمانية بالإنشاءات الدينية من مساجد وجوامع وزوايا وتكايا سواء على المستوى الرسمي ، او المستوى الشعبي حيث كانت الدولة تشرف على بناء الإنشاءات الدينية الضخمة، والفخمة خاصة في العاصمة أو في عواصم الولايات والمدن الكبرى المنتشرة في اقاليم الامبراطورية ، وتبع الحكومة المركزية كذلك الولاية، وحكام الاقاليم في البناء وكذاك الاشراف والتجار والامراء الذين يبذلون الاموال لبناء المساجد، والتكيا تقربا الى الله وتخليدا لذكرهم او ذكر ولى من الاولياء الذين يعتقدون بركتهم في مختلف المدن العامرة بالسكان والنشاط الاقتصادي .

المبحث الثاني

الاقليات

تميز المجتمع العثماني بالتنوع العرقي والديني الذي كان في البداية مصدر إثراء وتنوع ثقافي ساهم في تطور وتقدم المجتمع العثماني حيث كانت صفة " المواطننة " هي السائدة في كافة انحاء اقاليم الامبراطورية وكان يطلق على الجمع - اتراك أو عثمانيين - سواء المسلمين أو غير المسلمين من رعايا الدولة العثمانية و(بقي التسامح صفة أصلية ملازمة للمجتمع المسلم وللحكم الإسلامي في كل عصر وكل مكان أياً كان الحاكمون ، وكان المحكومون- حتى في أشد العصور اشتهاً بالعصبية الدينية - يجدون في الدولة الإسلامية الملاذ . ولما هرب اليهود الإسبانيين فراراً من الاضطهاد الصليبي جموع هائلة لم يجدوا لهم ملجأ إلا الدولة العثمانية في القرن الخامس عشر)¹ * وهذه الصفة من اهم ما ميز به الدولة العثمانية .

¹ مجلة البيان، عدد رقم ٢٣٨، حمدي عزيز، التهاون مع الأقليات وأثرها في تفتيت الدولة العثمانية أنموذج.

وهو ما جعل الدولة العثمانية ملاذ امن لغير المسلمين يأمنون فيه على ارواحهم واموالهم وممارسة اعتقادهم دون تدخل من الدولة أو تضيق . ناهيك عن المواطنين من الاقليات الدينية التابعين للدولة العثمانية المنتشرين في كثير من الولايات والاقاليم سواء في البلقان أو مصر والشام والعراق وغيرها من المدن على اعتبار انهم من رعايا الدولة ومواطنيها لهم كافة الحقوق وكانوا يدفعون ضريبة مالية " الجزية " مقابل الإعفاء من الخدمة العسكرية.

وهو ما وفر لهم حياة رغيدة من خلال حرية ممارستهم لكافة انواع النشاط التجاري والزراعي والحرفي في أرجاء الدولة مما مكن لهم تكوين ثروات طائلة مع المحافظة على ارواح ابنائهم بعدم مشاركتهم الدولة العثمانية في حروبها ضد اعدائها . ذلك الواجب الذي كان يقوم به ابناء المسلمين، ونتج عن هذه السياسة العثمانية نظام عرف بالنظام " الملي " ينظم شئون الاقليات في الدولة وينظم علاقاتها مع الدولة الذي ادي في نهاية المطاف الى استغلاله من قبل الدول الكبرى في فترة ضعف الدولة وكان احدي وسائل التدخل الخارجي في الشئون الداخلية للدولة العثمانية (وقاموا بتنظيم مؤسسة " الملة " لغير المسلمين بهدف تنظيم شئونهم الداخلية بحرية تامة وأداء الجزية للدولة في مقابل الدفاع عنهم ولكن مع تعاضف الدولة العثمانية وازدياد قوة النفوذ الخارجي داخلها ، وسعي هذه القوة الخارجية لكسب الانصار والاتباع ؛ بداء نظام الملل يتفتت ، ويتبخر ليحل محله نظام طائفي ملغوم ومهدد للأستقرار وللهوية معاً)¹ * إلا ان هذا النظام -الملي- كان في مرحلة قوة الامبراطورية العثمانية ونشاطها يمثل مدى سماحة الاسلام وتسامح الدولة مع رعاياها ، ومقدرتها على إفراز نظام إداري قوي ومنظم يحفظ حقوق ومصالح الاقليات التابعة للدولة مع تعزيز روح التسامح داخل مكونات المجتمع العثماني (في مرحلة قوة الدولة العثمانية مثلت نموذج إسلامي لأنصاف غير المسلمين عن طريق تأسيس نظام سياسي داخلي يقوم

¹ نفس المرجع
* - المجلة على الشبكة بدون ترقيم للصفحات وبدون تاريخ

على العدل والتسامح من ناحية ، ويستند إلى قدرة تنظيمية ، ومؤسسية حيوية (من ناحية أخرى) ^١ مع اتاحة فرص العمل والانخراط في جميع المهن والانشطة المتداولة في ربوع الامبراطورية دون تقييد على حرياتهم (وكان غير المسلمين يزاولون جميع المهن ، والانشطة التجارية، والزراعية ، والحرفية دون أي تمييز أو تضيق، فالنقابات المهنية كانت تشمل المسلمين والذميين معاً) ^٢ وهكذا استمرت علاقة الدولة العثمانية برعاياها من غير المسلمين وعلاقة هؤلاء الرعاية ينظمها ويضبطها القانون الملى إلى ان استغلته القوى الغربية وجعلته منفذا وشركا تصطاد به الرعايا من غير المسلمين للعمل ضد الدولة العثمانية (لقد ظل نظام الملل واحداً من الشواهد على سماحة الاسلام مع مخالفه في العقيدة، ولكن لما كانت سماحة الإسلام في يد القوي مصوّبا إلى قلب الضعيف فإنه ما أن بدأت الإمبراطورية العثمانية تضعف قواها وتخور حتى وقع الاختراق الغربي لأرضها بعد توظيف مجموعة التأثيرات الثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية التي كان قد تم التمهيد لها من قبل) ^٣ وهذا الاختراق مهد لدخول الارساليات التنصيرية بحجج متنوعة منها تعليمي واقتصادي اثر في جذب الاقليات والتأثير فيها للعمل لصالح الدول الغربية وتتنكر للدولة التي حمتها ورعت مصالحها عدة قرون من الزمن (ضلت الإرساليات التنصيرية شاهدا على الاختراق كما لعبت المؤسسات التعليمية المرتبطة بالبعثات التنصيرية المختلفة دوراً في نمو وعي طائفي مرتبط بالخارج) ^٤ وهو ما مهد للثورات العسكرية ضد الدولة كما حدث في اليونان، و صربيا ، وأرمينيا .

^١ - مجلة البيان، مرجع سابق

^٢ - نفس المرجع

^٣ - نفس المرجع

^٤ - نفس المرجع

الحرف

شكّلت الصناعات الحرفية الصغيرة جزء هام من الاقتصاد العثماني ، وكانت مصدر رزق لنطاق واسع من سكان الامبراطورية ، فهي تستوعب عدد كبير لا يتفوق عليه إلا عدد الملتحقين بالمؤسسة العسكرية التي كانت تستحوذ على اكبر عدد من القوة الشابة في المجتمع العثماني التركي وذلك لكون نشأة المجتمع التركي كانت نشأة عسكرية .

إلا أن أي مجتمع يحتاج بالضرورة إلى الايدي العاملة في المجال الحرفي الذي يوفر الاحتياجات العامة والخاصة في الحياة اليومية للحركة المجتمعية ، هذه الايدي تشكل مكون مجتمعي له خصوصيته من حيث المستوى المعيشي والموقع التخصصي في الدولة وله تأثيره في الاقتصاد العام ، ومدى الخدمات التي يقدمها على المستوى الداخلي للدولة ومردده الاقتصادي (كان ارباب الصناعات الصغيرة، والحرف هم الذين يقومون بتأمين حاجات الشعب على الاغلب)^١ واثره في التبادل التجاري مع الدول الاخرى حيث (إن المنسوجات المتقدمة جداً، والتي اصبحت من مواد التصدير؛ كانت منتشرة في جميع أنحاء الإمبراطورية، المصنوعات الجلدية التي كانت أجود نوعية في العالم بصورة جازمة كانت واسعة الانتشار)^٢ ومن المعروف ان مدينة بورصة استحوذت على شهرة كبيرة في صناعة النسيج الحريري فترة طويلة وليست بالقصيرة من الزمن .

^١ - تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، ترجمة عدنان محمد سليمان و محمود الانصاري، مؤسسة فيصل للتمويل، اسطنبول، ١٩٩٩م،

ج٢، ص ٥٩١

^٢ نفس المرجع، نفس الصفحة

وقد شكل ارباب الحرف الطبقة الوسطى في المجتمع العثماني والاطبق انشار، وشكلوا منظومة تخصصية عرفوا بمسميات الاصناف التي يقومون بصناعتها وبيعها في الاسوق (ارباب الحرف هم عماد الطبقة الوسطى . طبقة كبيرة مرفهة ذات اعتبار، وكبيرة العدد، يصنعون المواد، وبييعونها في المدن ، و ينقسمون إلى طوائف بحسب المواد التي يصنعونها وبييعونها)^١ . كما عرفن صناعة الحرف نقابات تخصصية تظم فيها كل نقابة متخصصة في حرفة معينة منصوص عليها، ولا يسمح لدخولها إلا من كان يمارس الحرفة المتعلقة بالنقابة، ولا يسمح بازواجية الانضمام بل الانتماء متعلق بالحرفة التي يمارسها المحترف فعلياً (لا يمكن قبول اصحاب الحرف الذين لا ينتمون إلى النقابات " لونه " كل محترف كان عضواً بالضرورة في نقابته الخاصة بصناعته)^٢؛ كما تتبع النقابات نظام محدد له قيادته التي تشرف عليه وتمثله لدى اجهزة الدولة (يطلق على رئيس النقابة " شيخ " وعلى معاونه " كتخدا " أو " كاهيا " وكان هؤلاء مخولين بمراجعة الدولة)^٣ وبهذا تشكل الصناعة الحرفية عنصر هام في الصناعات العثمانية ؛ ولها مردودها الاقتصادي الكبير مع تمثيل نقابي متميز ومتقدم له سلطته التي تحافظ على كيان الصناعة وتمثل الايدي العاملة في الصناعات الحرفية لدى مؤسسات الدولة وهي المدافع الرئيسي لحقوقهم والتذكير بدورهم في ما يقدمونه من خدمات اقتصادية داخل المجتمع أو على مستوى التجارة الخارجية التي تمثل داعم قوي، ورافد من روافد الاقتصاد ، وتعتبر احد اهم المؤسسات الفاعلة، والمكونة لطبقات المجتمع العثماني .

١ - تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ص ٥٨٢

٢ - نفس المرجع، ص ٥٨٣

٣ - نفس المرجع، نفس الصفحة

المبحث الرابع

الطبقات

موضوع الطبقات هو الموضوع الرئيس في هذه الدراسة وهو موضع تساؤل فيها أي انها محاولة الاجابة على سؤال : هل المجتمع العثماني مجتمع طبقي؟؟ بمعناه الحقيقي للطبقية ام ان الطبقة في المجتمع العثماني لها خصوصيتها ؟

ومن خلال تتبع الوضع الطبقي في المجتمع العثماني نجد ان المفهوم الطبقي في الدولة العثمانية يختلف عن المفهوم الطبقي في المجتمع الهندي القائم على التفاوت المزري الذي يوصل بحد جعل الطبقات منعزلة عن بعضها في طبقية متعالية تبدأ من طبقة السادة وتنتهي بسلم طبقة المنبوذين؛ وبخلاف التفاوت الطبقي في اوربا العصور الوسطى الذي يقوم على طبقة النبلاء وينحدر إلى طبقة الاقنان العبيد الذين يمتلكهم النبلاء الاقطاعيين كملكية الارض التي يعملون فيها .

وفي الحالة العثمانية نجد ان النظام الطبقي المزري غير منتشر في الدولة وذلك لسيادة الثقافة الاسلامية التي تساوي بين الرعية ، وتقوم على محاربة الطبقة المقيتة الموجودة في الحضارة الاوربية والهندية ؛ وإن كان يسود نظام يمكن ان نطلق عليه " التفاوت الطبقي " بين شرائح المجتمع في الدولة العثمانية يقوم على المهنة والوظيفة والحالة الاجتماعية والاقتصادية للفرد كانت الدولة تساهم بطريقة أو اخري ترعاه وتعمل على السير وفق هذا التفاوت اكثر من محاولتها محاربتة أو التضييق عليه (كانت الدولة شديدة الاهتمام ببقاء كل فرد في طبقتة ، على اعتبار أن ذلك من المستلزمات الأساسية للنظام السياسي والاجتماعي وللانسجام. وبهدف زيادة الضرائب)^١ ويمكن أن نتابع أم المؤسسات الطبقة التي كانت سائدة في المجتمع العثماني على النحو التالي :

^١ - في اصول التاريخ العثماني، احمد عبدالرحيم مصطفى، دار الشرق، ١٩٨٦م، ط٢، ص ١١٣

١- الانكشارية

تعتبر الانكشارية علامة فارقة في المجتمع العثماني من حيث التكوين والتركية ومن حيث المهام العسكرية المناطة بها وكذلك ما وصلت اليه من تأثير في ادارة الدولة وتدخلها في اعلى هرم الدولة في فترة متأخرة من نشاطها ومن الاسباب التي ادت الى حلها والتخلص منها.

حين ان طبقة الانكشارية تكونت عن طريق استجلاب الاطفال الصغار من المناطق المفتوحة واخضاعهم إلى التدريب العسكري بعد إدخالهم للدين الاسلامي ؛ ثم الدفع بهم الى المناطق القتالية واعتبارهم كمؤسسة عسكرية مهمتها الفتح والقتال وقد تدرج البعض منهم في المناصب العليا في الدولة واصبح لهم من النفوذ والسطوة في وإدارة الولايات التابعة للدولة العثمانية ما أهل بعضهم إلى الوصول إلى شغل مناصب الباب العالي – رئاسة الوزراء – بل كان لهم من النفوذ ما جعلهم يقومون بعزل بعض السلاطين وتنصيب اخرين مكانهم في السلطة ومعمر مرور الوقت اصبح هولا الجنود جزء من المجتمع وانصهرا وفي مكوناته لهم ما له وعليهم ما عليه و (بنهاية القرن السابع عشر اصبح الانكشارية جزء من النسيج الاجتماعي والتجاري مستفيدين من انتمائهم، ولو شكلياً إلى شريحة اجتماعية لها امتيازاتها ، والجدير بالملاحظة أن المكانة الاجتماعية المتميزة لهؤلاء اصبحت متوارثة)^١ بين ابناءؤهم وكانت الامتيازات لهم في الاقاليم والولايات اكثر منها في العاصمة اسطنبول حيث تمكنوا من الحصول على الاستقلال الذاتي في بعض الولايات مثل طرابلس وتونس والجزائر يتوارث فيه الحكم الابناء عن الاباء وليس للدولة العثمانية إلا السلطة الاسمية فقط . وهكذا اصبحت طبقة الانكشارية ذات نفوذ بالغ بحكم الصلات التي صارت تربطها بعامّة الشعب . وبلغت جرأتهم حدّاً جعلهم يتحكمون بخلع وتنصيب السلاطين وكبار الوزراء)^٢ ونتج عن تصرفاتهم

١- الدولة العثمانية ١٧٠٠-١٩٢٢م، دونالد كواترت، مرجع سابق، ص ١٠١

٢- نفس المرجع، نفس الصفحة

وتدخلهم المباشر في الشؤون العليا للدولة ظهور موجة سخط كبيرة عليهم وعلى تصرفاتهم حتى تم القضاء عليهم وتحجيم نفوذهم كقوة سياسية كبيرة ومتغولة على شؤون الدولة سنة ١٨٢٦م

٢- الأعيان

يمكن تقسيم الأعيان أو السادة في الأقاليم إلى ثلاثة فئات :

الفئة الأولى :

(التي تتحدر من الولاية وكبار الموظفين المعينين من قبل السلطة المركزية، والتي استوطنت فيما بعد في المناطق الخاضعة لإرادتها)^١

الفئة الثانية :

(تنتمي إلى طبقة الزعماء، والأقطاعيين المحليين التي كانت تتمتع بالسطوة، والنفوذ قبل مجيء العثمانيين، ومما لا شك فيه أن بعض السلاطين سمحوا لهذه الطبقة بالاحتفاظ بامتيازاتها)^٢

الفئة الثالثة :

(هي الطبقة المتحدرة من المماليك الذين يعود تاريخهم إلى العصور الإسلامية الوسطى . وقد حكم المماليك مصر لبضعة قرون)^٣ واعتبار العلماء بأنهم جزء من الأعيان فهم مكون المؤسسة الدينية وكذلك التجار هم جزء من الأعيان و(يمكن القول بوجه عام أن أعيان البلاد، والزعماء المحليين ظلوا يتمتعون بنفوذهم بعد أن فتح العثمانيون تلك البلاد بفضل صلاتهم الوثيقة برجال الدين والعلماء والتجار وكبار الملاكين)^٤ ولم يطرأ على النظام السابق للفتح تغيير كبير بل بقي لأصحاب النفوذ نفس نفوذهم السابق وامتيازاتهم التي استقوها من الدولة العثمانية واستمروا كما كانوا بل أكثر من السابق .

^١ نفس المرجع، ١٠٢

^٢ - الدولة العثمانية ١٧٠٠-١٩٢٢م، دونالد كواترت، مرجع سابق، ص ١٠٣

^٣ - نفس المرجع نفس الصفحة

^٤ - نفس المرجع، ص ١٠٤

٣- الفقراء والعبيد

تعتبر طبقة الفقراء المتسولون من ادنى طبقات المجتمع العثماني وهي الفئة العاطلة على العمل وتعتمد على التسول او ما يقدمه لهم الاغنياء من صدقات وزكوات وإن كانت هذه الطبقة اقل عدديا في المجتمع العثماني من غيره من المجتمعات والعواصم الكبرى في ذلك الوقت بسبب التكافل الاجتماعي الذي تنظمه الشريعة الاسلامية في الدولة العثمانية المسلمة (يأتي المتسولون في نهاية الطبقات الاجتماعية ... هم الزمرة التي كانت تأكل في المطابخ العامة " عمارات " وفي القصور مجانا . إن مستوى حياة الإستانبولي، كان أرقى من مستوى حياة الباريسي ، اللندني)^١، وكان في المجتمع صنف من العمالة التي تعتبر من ضمن الطبقات الفقيرة التي تقف على مجهودها العضلي الذي يوفر لها لقمة العيش وهم العتالون (كان يوجد في استانبول صنف كبير العدد جداً ، وهم العتالون . هؤلاء ايضاً كانوا من الخارج وكانوا ينقسمون إلى قسمين رئيسيين ؛ عتالي الميناء وعتالي السوق، كانت لهم تشكيلات، ونقابات . عتالو الموانئ ، كانوا يؤخذون للخدمة بعد تمحيص كبير)^٢ وكان لهذه الطبقة دور بارز الموانئ وتقديم الخدمات اللازمة في توصيل البضائع إلى الاسواق وتنشيط الحركة التجارية فيها ؛ مع توفير الخدمات بتوصيل الاحتياجات الخاصة إلى المنازل والقصور ، و... الخ

العبيد :

تعتبر هذه الطبقة من الطبقات الهامة في الخدمة المنزلية ، والذين تعج بهم قصور السلاطين والامراء ومصدر هذه الطبقة هو الغزو والفتح حيث يتم اسرهم ثم توزيعهم على اصحاب النفوذ والمراكز العسكرية ، أو يباعون في الاسواق في المدن العثمانية ، وتم جلب بعضهم من الدول

^١ - تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ٥٧٤

* هكذا وردت في المرجع المقتبسة منه

^٢ - نفس المرجع، ص ٥٧٦

المتاخمة لحدود الولايات العثمانية في افريقيا) يجري تشغيلهم في الخدمات المنزلية . يستند ماضي أكثرهم إلى كونهم أسرى حرب . أما في العصور الأخيرة ، فقد كانوا أطفالا يبتاعون من قفقاسيا وبصورة عامة فقد جلب السود منهم من الصومال ومن الحبشة)^١ وهم يتمتعون بكثير من الحقوق التي تكفلها لهم الدول مقارنة بأمثالهم من العبيد في اوربا (جميع الحقوق الإنسانية للعبيد ، كانت محفوظة. كان لا يجلد لا يظلم ، ولا يقتل . للعبد والجارية الحق في شكاية سيدهما إلى القاضي ، ولا يختمون كما في أوربا)^٢ إلى عصور متأخرة من تاريخها .

٤- الفئة الحاكمة

(أهل السيف والقلم)

وتمثل هذه الفئة ارقى وأعلى الفئات لما تتمتع به من سلطة وجاه ومكانة اجتماعية عالية لا تدانيها فيها أي طبقة أو فئة من فئات المجتمع العثماني .

وكانت هذه الفئة تتكون من الفئات التالية :

١- الكتاب

٢- العسكريين

٣- زعماء الطرائق

ويمكن ان نطلق على هذه الفئات مجموعات النخبة في المجتمع بكونهم يمثلون القوة العسكرية والسلطة الدينية الروحية ، واصحاب القلم والكتابة في الدواوين ووزارات الدولة .

^١ - تاريخ الدولة العثمانية، يلماز أوزتونا، مرجع سابق، ص ٥٧٨

^٢ - نفس المرجع، ص ٥٧٩

المبحث الخامس

السكان

أثرت حركة الفتح والغزو التي قامت عليها الدولة العثمانية في التركيبة السكانية من حيث العدد والتنوع العرقي واللغوي والثقافي والديني وشكلت لوحة فسيفسائية رائعة عكست جمل وتنوع التركيبة السكانية للمجتمع العثماني مع غلبة سيادة روح التسامح بين كافة المكونات إلا في اليسير النادر طيلة فترة قوة الدولة العثمانية . وما حدث من اختلاف وصراع لم يكن ليحدث لولا ضعف الدولة والتدخلات الأجنبية في الشؤون الداخلية للإمبراطورية ، واستغلال بعض الأقليات لخدمة مصالح الدول الغربية لتحقيق اغراضها في التدخل في شؤون الدولة والعمل على اضعافها والسيطرة على ممتلكاتها عن طريق استخدام بعض السكان المحليين وخاصة الأقليات الدينية والعرقية التي كانت تتمتع بكافة حقوقها في ضل الدولة العثمانية .

أن الدولة العثمانية لم تعرف الاحصاء السكاني إلا في وقت متأخر ولذا يصعب التكهن بعدد سكان الامبراطورية في وقت مبكر هذا بالإضافة الى حركة التوسع السريع في بدايات الدولة مما يعطي مؤشر على زيادة السكان بحسب سرعة التوسع وعدد السكان الذين يتم إضافتهم الى السيادة العثمانية مع كل حالة فتح وضم مساحة جغرافية بما تضم من سكان الى السيادة العثمانية (دأبت الدولة العثمانية حتي وقت متأخر حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر على تعداد مصادر الثروة دون الالتفات إلى احصاء عدد السكان؛ معتبرة أن مواردها البشرية تنحصر في أولئك الأفراد الملتزمين بدفع الضرائب أو بأداء الخدمة العسكرية لذلك لا تستطيع تقدير عدد السكان بدقة إلا بعد سنة

١٨٨٠م عندما شرعت الدولة بأجراء احصاءات رسمية (١ إلا أن عدد السكان بقاء في التناقص في الأوقات المتأخرة بسبب عوامل متعددة ومتنوع اثمرت في تناقص النمو السكاني في بعض الاقاليم الاوربية (ويبدو من المؤكد أن عدد السكان كان يتناقص خلال القرن السابع عشر ، وبحلول سنة ١٨٠٠م نلاحظ أن عدد السكان في المناطق الأناضولية، و البلقانية حصراً لم تتغير)^٢ وكذلك العربية التي شهدت تراجع في عدد سكانها بينما سجلت صعوداً في اقاليم اخرى ثم ارتفاع (وثمة ما يؤكد أن عدد سكان الأقطار العربية شهد انخفاضاً إبان القرن الثالث عشر، وخاصة بعد سنة ١٧٧٥م في حين أرتفع خلال القرن التاسع عشر في كل من البلقان والأناضول، والبلدان العربية)^٣ ومع بدايات القرن العشرين تم تسجيل احصاء لعدد لسكان الامبراطورية (لكننا نستطيع أن نؤكد أن عدد سكان الدولة العثمانية سنة ١٩١٤م نحو ٢٦ مليون نسمة، ولاستيعاب هذه الأرقام يجب الأخذ بعين الاعتبار تقلص مساحة الإمبراطورية من " ٣٠٠ مليون " كيلومتر مربع إلى " ١٠٣ مليون " كيلومتر مربع مما يعني أن الكثافة السكانية تضاعفت تقريباً بين سنتي ١٨٠٠ و ١٩١٤م وذلك لأن عدد السكان تغير تغيراً طفيفاً خلال هذه الحقبة)^٤ ومن المؤكد انه بعد هذا التاريخ بقليل اقل نجم الامبراطورية العثمانية وتقلصت مساحتها و عدد سكانها إلى ما يعرف بحدود تركيا الحالية فقط .

المبحث السادس

١ - الدولة العثمانية ١٧٠٠-١٩٢٢م، دونالد كوانترت، مرجع سابق، ص ٢٠٨

٢ - نفس المرجع، ص ٢٠٨

٣ - نفس المرجع، ص ٢٠٩

٤ - نفس المرجع، نفس الصفحة

٣- تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، سيد محمد السيد، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٣٦٢

القوميات والطوائف

إن موضوع الهوية القومية والطائفية في الدولة العثمانية التي كانت عبر تاريخها تستوعب قوميات كثيرة ، وطوائف دينية مختلفة كانت تعيش في وئام وتعاون مشترك في كافة جوانب الحياة، ومن مكوناتها يتشكل النمط الاجتماعي في الإمبراطورية .

لقد قامت الدولة على عقيدة ذات حضارة راسخة ، فامتدت بها امتدادا عظيماً ، فوصلت إلى ابواب فينا غرباً ، وإيران شرقاً ، وجنوب روسيا شمالاً ، وضمت شعوباً مختلفة الاعراق متباينة اللغات والاديان إلا أن تامي المشاعر القومية ، والطائفية كان يؤدي احياناً إلى صراعات دموية، ومذابح خلقت احقاد لا تزال حتى اليوم تلقي بظلالها على العلاقات بين الأتراك من جهة ، والأرمن، واليونان، والأكراد من جهة أخرى و(لم يكن هذا الصراع بين القوميات، والطوائف لينشا لولا ظروف تاريخية معينة ، وأحداث اتخذت فيما بعد منحى خاص ... ولم تكن وليدة أحقاد تاريخية قديمة إنما هي حديثة العهد، ويمكن تحليلها بالرجوع إلى أحداث جرت إبان القرنين التاسع عشر ، والعشرين ، وليس بأحداث عرقية متأصلة منذ القدم كما يفترض البعض)^١ وهو هو ناتج عن استغلال الدول الغربية لهذه الطوائف في تقويض أركان الدولة العثمانية للإجهاز عليها وتقسيم ممتلكاتها وكان تجاوب هذه الاقليات سريع ومثمر اتت نتائجه بسرعة فائقة اثرت في الدولة وعجلت بانهارها ثم سقوطها .

^١ - الدولة العثمانية ١٧٠٠-١٩٢٢م، دونالد كواترت، مرجع سابق، ٣٠٦

ومع ان هذه الاقليات الخاضعة للدولة العثمانية كانت تتمتع بحريات ونفوذ لا تتمتع به اقلية اخرى في الدول الاوربية لكن التدخل الاوربي كان له تأثير عليها جعلها اده ومعول هدم بل دان تكون اداة بناء وشراكة مع المجتمع الذي تعيش بين ظهرانيه ؟ (لا يمكن أن ننكر أن العلاقات بين مختلف الأقوام، والاقليات كانت علاقات جيدة نسبياً ، وما من شك أن الأقليات الخاضعة للحكم العثماني كانت تتمتع بحقوق وحماية أكثر من تلك الاقليات الي كانت تعيش في الممالك الأخرى مثل فرنسا أو امبراطورية الهابسبورغ)^١ حيث كانت هذه الاقليات تتمتع بحرية العبادة والاستقلال القضائي فيما يخص احوالها الشخصية وامورها الدينية (كان النظام القضائي حتى القرن التاسع عشر يعكس التعددية الطائفية . بمعنى أنه كان لكل طائفة دينية محاكمها الخاصة وقضاتها)^٢ ووفرت لهم حرية التقاضي الى المحاكم الشرعية الاسلامية (إن المحاكم الإسلامية " الشرعية " في كثير من الأحيان تمنح المسيحيين، واليهود حقوقاً لا تتوافر في المحاكم المذهبية لهاتين الطائفتين . لذلك كان العثمانيون غير المسلمين يلجئون من حين لآخر إلى المحاكم الشرعية لأنصافهم علماً بأنهم لم يكونوا ملزمين بذلك)^٣ الا ان كل هذه الإجراءات وهذه الحريات التي تتمتع بها هذه الاقليات لم تشفع للدولة العثمانية بل حرصت على العمل ضدها والتحالف مع اعدائه الين كان يهتمهم (الحرص على تخليص المسيحيين في انحاء العالم ، وبخاصة في أرجاء الدولة العثمانية من الحكم الإسلامي والسعي لتحويل المسلمين إلى اكثرية مستضعفة)^٤ كان هو العامل

١ - نفس المرجع، نفس الصفحة

٢ - نفس المرجع، ص ٣١١

٣ - نفس المرجع، ص ٣١٢

٤ تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار، سيد محمد السيد، مكتبة الآداب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ٣٧٩

الاساسي والدافع الاول لهؤلاء الخصوم الذين كرسوا كل جهودهم للقضاء على الدولة العثمانية من خلال اختراق منظومتها الاجتماعية واستغلال بعض رعاياها من الاقليات الغير مسلمة لتفكيك البنية الداخلية للدولة والتعاون مع الاعداء بحة التخلص من الهيمنة العثمانية وبحجج واهية منها الحرية الدينية التي كانت مكفولة لهم ويمارسونها بكل حرية .

الخاتمة

وصلت الدراسة الى خاتمتها التي تلخص ما وصلت إليه من نتائج بعد المطالعة والبحث بين المراجع والمصادر التي توفرت لنا واستطعنا الوصول اليها فيما يتعلق بموضوع البحث الذي تناول المظاهر الاجتماعية في الدولة العثمانية والتي تمثلت في دراسة وتحليل ومحاولة تقييم مي يتعل بهذه الظواهر من حقائق وما تعرضت له من محاولا تزييف أو تشوية في بعض المراجع التي يتخذ اصحابها مواقف تاريخ الدولة العثمانية ، فقما بمتابعة هذه المظاهر ومحاولة تقييمها من خلال دراستها والغوص في كنهها للوصول إلى حقائقها وحقائق اثرها وتأثيرها في الحياة الاجتماعية في المجتمع العثماني .

وقد شملت دراستنا لبعض المظاهر الاجتماعية وليس كلها بل تم اختيارنا لما رأيناه من مظاهر كبيرة لها تأثيرها الواسع في المجتمع ويمكن اعتبارها من الظواهر الهامة والتي لها انعكاسها العام على باقي الظواهر التي يمكن ان نعتبرها تقع ضمنيا او لها علاقة مباشرة أو غير مباشر بالظواهر محل البحث .

حيث كانت المظاهر محل البحث هي العلماء – السكان – الأقليات الحرف – الطبقات – الأقليات والطوائف . وصلت فيها الدراسة الى نتائج هامة حول تأثير هذه المظاهر واثرها القوي في بناء الدولة وعلاقتها بالحياة العامة وتحديد ملامح وهوية الدولة العثمانية كما اظهرت الدراسة اثر هذه الظواهر في الدولة العثمانية في مرحلة قوتها وتوسعها وانتشارها، وتأثيرها في اثناء مرحلة الضعف والتلاشي والاضمحلال .

قائمة المراجع

- ١- تاريخ الدولة العثمانية ، يلماز أوتونا ، ترجمة عدنان محمود سلمان ، مؤسسة فيصل للتمويل، استانبول، ١٩٨٨م ، المجلد الأول
- ٢- تاريخ الدولة العثمانية ، يلماز أوزتونا، ترجمة عدنان محمد سليمان و محمود الانصاري، مؤسسة فيصل للتمويل، اسفابول، ١٩٩٩م، ج٢،
- ٣- الدولة العثمانية ١٧٠٠- ١٩٢٢م ، دونالد كواترت ، تعريب أيمن الأرماني ، مكتبة العبيكان، الرياض ، ٢٠٠٤م
- ٤- في اصول التاريخ العثماني ، احمد عبدالرحيم مصطفى ، دار الشرق ، ١٩٨٦م ، ط٢.
- ٥- قيام الدولة العثمانية ، محمد فؤاد كوبرلي، ترجمة احمد السعيد سليمان ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، دون تاريخ
- ٦- تاريخ الدولة العثمانية النشأة والازدهار ، سيد محمد السيد ، مكتبة الآداب ، القاهرة .

المجلات والدوريات

- ١- مجلة البيان ، عدد رقم ٢٣٨ ، حمدي عزيز ، التهاون مع الأقليات وأثرها في تفتيت الدولة العثمانية أنموذج .